سلف للبحوث و الدراسات
www.salafcenter.org

أوراق علمية (15)

فَمَن خَلَقَ الله؟

مناقشة الشبهة الإلحادية
وإبراز كمال المعالجة الشرعية

إعداد :
هيئة التحرير بمركز سلف للبحوث والدراسات

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد، يعتبر دليل الخلق والإيجاد باكورة أدلة وجود الله تعالى، بل أقواها عقلا، وأظهرها وجودًا، وأيسرها فهمًا، وأقربها إلى الفطر، وأوسعها انتشارًا على مر التاريخ[1].

ولما كان هذا الدليل بهذه المتانة والمكانة؛ صوَّب الأبالسة إليه سهامهم، ووقفوا له بالمرصاد، ومن أهم تلك الأسهم التي أصيب بها أفئدة كثير في القديم والحديث، **شبهة تقول: إذا كان لكل شيء خالق، فمن خلق الله؟**

فهذا الاعتراض من أقدم الاعتراضات التي حررها الإسلام أبلغ تحرير، ولكن مع كونه تليدًا عتيقًا إلا أنه في ذات الوقت حديث متجدد، بل من أوسع الاعتراضات انتشارًا على دليل الخلق والإيجاد.

ومَن ابتليَ بهذه الشبهة الشيطانية ليس على حال واحدة، بل في الأمر تفصيل سيظهر معنا بإذن الله.

ولهذه الأسباب مجتمعة، ولظنِّ بعضهم أن الشرع لم يعالج هذه القضية أكمل علاج؛ كانت هذه الورقة.

ففيها سنستعرض هذه الشبهة ومراتب من تأثر بها، نردفها بمناقشتها، وكشف زيفها، وإبراز مناقضتها لأدلة العلم التجريبي الحديث، مُعقِّبين ذلك ببيان سبق الإسلام وكمال معالجته لهذه الشبهة مذ وقت مبكِّر.

اللهم إنا نسألك الإخلاص والسداد والقبول والرشاد.

---

(١) وللاستزادة ينظر: مقال الإبداع والاختراع ووجود الله الصادر عن مركز سلف للبحوث والدراسات.

قبل كل شيء

إن كنت -يا رعاك الله- من الأنقياء الأتقياء المؤمنين بالأوَّل الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء سبحانه وتعالى، وخطرَ على فؤادك هذا الإشكال دون أن يستقرَّ، فأبشر بفلاحك وصلاحك، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بأن هذه حيلة الشيطان مع مَن أيِس مِن إغوائه وإضلاله لرقيِّه في مراتب الإيمان العليا؛ كما حصل مع صفوة الخلق وخيرة البشرية صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم ورضي عن صحابته- فعن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «**وقد وجدتموه؟**» قالوا: نعم، قال: «**ذاك صريح الإيمان**»[(١)]، وفي رواية: «**تلك محض الإيمان**»[(٢)].

وأما عن علاج الشرع لها، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «**يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربَّك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته**»[(٣)]. وفي رواية: «**فليقل آمنت بالله**»[(٤)].

فدونك وصية النبي الذي ما ضلَّ وما غوى {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٣، ٤] فعُضَّ عليها بالنواجذ، مستعيذًا بالله من الشيطان الرجيم وخطراته، ومعرِضًا عن وساوسه المناقضة لمنطق العقلاء، وأسئلته المتناقضة لدى الفضلاء، ومُجدِّدًا إيمانك القائم على التسليم لرب الأرض والسماء، والمتفق مع أقوال الرسل والألبَّاء، فإنَّ مَن عمَّر قلبه بالإيمان انخنس عنه الشيطان.

وأما الانجرار وراء خطرات الشيطان فلا طائل تحته؛ فطريق الشكوك لا منتهى له، ولا جدوى إلا بالانتهاء والوقوف كما أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإن المرء إذا وصل غاية

---

(١) صحيح مسلم (٢٠٩).

(٢) صحيح مسلم (٢١١).

(٣) صحيح البخاري (٣٢٧٦).

(٤) صحيح مسلم (٢١٢).

الغايات ونهاية النهايات وجب وقوفه وانتهائه؛ لأن من حصَّل نهاية مطلوبه فغاية مراده حينئذ أن ينتهي[١].

هذا أفضل علاج وخير دواء لهذا الداء، **وهذا القدر كافٍ لك أيها الفاضل إن كان هذا السؤال مجرد خاطرة**[٢].

وأما إن كنت أيها القارئ العزيز ممَّن استقرت هذه الشبهة في نفسه، وعلقَت في ذهنه، وأشغلت فكره، أو كنت ممَّن يُناقش هؤلاء سواءً كانوا يثيرونها أو فُتنوا بها، فسنكمل معك باقي الطريق، لنناقش هذه الشبهة، ونكشف عوارها، ونبين بطلانها، بإذن الله تعالى[٣].

منبع الشبهة وحقيقتها

لا يحسن بنا ونحن نتحدث عن هذه الشبهة أن نُغفل الكلام عن منبعها ومنبتها، فهذه الشبهة في الحقيقة ليست سوى **اعتراض على دليل الخلق والإيجاد** الشهير الدالِّ على وجود الله سبحانه وتعالى، فبينما يستدل المؤمنون بحدوث الكون على وجود الله تعالى، بقولهم: إن الكون حادث، وكل حادثٍ فلا بد له من محدِثٍ أزلي قديم، وذلكم هو الله[٤]؛ يوحي الشيطان إلى أوليائه بقوله: **إذا كان كل شيء يحتاج إلى محدِثٍ وخالق، فوجود الله أيضا يحتاج إلى محدِث وخالق، فمن خلق الله؟**

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/٣١٤ – ٣١٥).

(٢) ولعلك تشاهد ردود عمالقة النقاش والرد على الشبهات في البرامج الجماهيرية من أمثال أحمد ديدات وتلميذه ذاكر نايك ينظر: https://www.youtube.com/watch?v=nAjTSJpHlhM ، https://www.youtube.com/watch?v=_o3GN85BBq8 ، https://www.youtube.com/watch?v=qFIzJ9aYkeA .

(٣) هذا التفصيل في حال ومراتب من وردت عليه هذه الشبهة، قد فصَّله العلماء، ينظر: شرح النووي على مسلم (٢/ ١٥٥).

(٤) وللاستزادة ينظر: مقال الإبداع والاختراع ووجود الله، في موقع مركز سلف للبحوث والدراسات.

بيد أن كثيرًا ما يراد بمثل هذا الاعتراض في يومنا هذا مجرد الشغب والسجال ليس إلا[١].

ورغم كل ذلك فقد شكَّلت هذه الشبهة عائقًا دون الإيمان بالله سبحانه لدى كثير؛ كالفيلسوف (هيوم) حيث يقول: "إذا كان لا بد لنا من البحث عن علّة لكل شيء، لوجب إذن أن نبحث عن علّة للإله نفسه"[٢].

وعلى إثر (هيوم) تَتَابع كثير من الملاحدة في الافتتان به، يقول (برتراند رسل) وهو يتحدث عن علاقته بدليل الخلق والإيجاد: "كنت أعتقد صحة حجة المسبِّب الأول إلى أن قرأت في عمر الثامنة عشرة سيرة (جون ستيوارت مل)، حيث وردت الجملة التالية: (علمني والدي أنه توجد إجابة عن السؤال: من خلقني؟ لأن السؤال التالي سيكون: من خلق الرب؟!)، هذه الجملة القصيرة هي التي أوضحت لي مغالطة هذه الحجة، إذا كان لكل شيء سبب يجب أن يكون للرب سبب أيضا"[٣].

ومنهم أيضًا الفيلسوف (سبنسر) حيث يقول: "استمع إلى هذا الناسك المتدين، ها هو ذا يقصّ عليك علّة الكون، وكيف نشأ، فخالق الكون عنده هو الله، ولكنه لم يفسّر بهذا الرأي من المشكلة شيئًا، ولم يزد على صاحبه (أي: المنكر للخالق) سوى أن أرجعها خطوة إلى الوراء.

وكأني بك تُسائله في سذاجة الطفل: ومن أوجد الله؟"[٤].

وكذلك (ستيفن هوكنج) و(ريتشارد داوكنز) الذي اعتمد عليه في جلِّ كتابه الإلحادي (وهم الإله).

---

(١) وهذا ما بينه الشيخ عبد الله العجيري في كتابه شموع النهار (ص١٥٠).

(٢) ينظر: قصة الفلسفة الحديثة، زكي نجيب محمود (٢٤٤).

(٣) لماذا لست مسيحيا؟ مجلة "أنا أفكر" (٢١/٦).

(٤) ينظر: قصة الفلسفة الحديثة، زكي نجيب محمود (٤٧٧).

وراجت هذه الشبهة في ألسنة وأفئدة كثير، حيث تضخُّها أجهزة الإعلام بمختلف أساليبها ووسائلها، وتبثها في أوساط الشباب الحائر، فتأثَّر بذلك بعضهم حتى استقرَّت في النفوس، وهذا ما يحوجنا إلى كشف عوار هذه الشبهة، وبيان بطلانها.

بطلان الشبهة وتناقضها

لاحظ أخي القارئ هذه الأسئلة، ثم تفكَّر هل لك أن تجيب عنها؟

- ما نوع الطفل الذي وُلد لأحمد في المستشفى البارحة، أهو ذكر أم أنثى؟

- من هي زوجة العازب؟

- كم لترًا يكون حرارة الطقس في هذا الوقت؟

هل تستطيع أن تجيب عن هذه الأسئلة، أم أنك تلاحظ فيها تناقضًا داخليًا لا يمكن مسايرتُه؟

لا شك أنك تلاحظ أن **هذه الأسئلة تحمل في طياتها مغالطات منطقية** تنقضها دون أن تحتاج إلى إجابة.

فكيف ننتقل للبحث عن نوعية الطفل الذي وُلد لأحمد، ونحن نوقن أن السؤال مبني على خطأ، وهو: أن أحمد رجل، والرجل لا يلد؟!

أم كيف نبحث عن زوجةٍ لرجل نحن موقنين أن لا زوجة له؟!

بل كيف نبحث عن عدد لترات الحرارة، ونحن نوقن أن اللتر ليس مقياسًا للحرارة؟!

لا شك أنك تقرُّ معي أن الحل هنا هو التوقُّف وردّ هذا السؤال؛ لأنه سؤال لا معنى له ولا جواب؛ إذ ليس المقصود منه الجواب في الحقيقة وإنما مجرد السجال والجدال، فالأفضل هنا أن نتوقَّف ونوقِف السائل ونطلب منه ألَّا يسفِّه عقولنا ويخاطبنا بتلك المغالطات.

إذا أيقنت بهذا، فإن سؤال "من خلق الله" من جنس هذه الأسئلة، فهي في حقيقتها تقول: من خلق الذي هو غير مخلوق؟!! أو ما بداية الذي لا بداية له؟!!

وكيف نبحث عن خالق الذي لم يُخلق ولا خالق له، أو بداية الذي لا بداية له سبحانه وتعالى، وهل كان الله في يومٍ من الأيام معدومًا حتى يُبتدأ وجوده، حاشاه سبحانه.

كيف تكون له بداية وهو الأول المتصف بالأولية المطلقة؟! فليس قبله شيء سبحانه، وأيضا هو الآخر فليس بعده شيء[(١)]، فالله سبحانه وتعالى لا بداية له ولا نهاية، وإنما {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ} [الحديد: ٣]، فوجوده أزلي قديم لم يكن في وجوده مفتقرًا إلى غيره سبحانه وتعالى، بل وجوده الوجود الواجب الذي يحتاج إليه غيره، لا كوجود المخلوق الممكن الوجود.

وأما حيرة بعض العقول أمام تصوّرِ موجود أزلي لا أوّل لوجوده فذلك لا يستلزم عدم وجوده؛ ومتى كان عدم العلم بالشيء علما بعدمه؟!

وهذا السؤال وهذا الاعتراض في حقيقة الأمر يكشف عن **سوء فهم وخلط بين ما يستدل به المؤمنون من الوجود الحادث الممكن واستلزامه للوجود الواجب، وبين معنى الوجود مطلقًا**، وشتَّان بينهما، فالمؤمنون في دليلهم ينصُّون على أن كل مُحدَثٍ لا بد له من سبب ومن خالقٍ محدِث أوجده، بعكس ما يدعيه هؤلاء الملاحدة بأنهم يقولون إن كل موجود لا بدَّ له من سبب، فهم لا يقولون هذا، وإنما يقولون إن الوجود الممكن –فقط وليس كل موجود– لا بد له من سبب وموجود واجبٍ أحدثه.

واستلزام الوجود الحادث الممكن للوجود الواجب ليس مجرَّد افتراض اعتباطي يفترضه المؤمنون بالله تعالى[(٢)]، وإنما هي مسألة ضرورية عقلية بدهية، فوجود خالقٍ ومحدثٍ أوليّ وجوده من نفسه متصف بالوجود الواجب[(٣)] ضروري، وقد تتساءل كيف ذلك؟

---

(١) ينظر: صحيح مسلم (٢٧١٣).

(٢) والعجيب أن كثيرًا من (دعاة الإلحاد الجديد) ينسب هذا إلى المؤمنين وإلى دليل الخلق والإيجاد، ينظر: وهم الإله لـ(ريتشارد دوكنز) (ص٧٧).

(٣) هذا وصف لوجود الله سبحانه وتعالى، ولا يعتبر اسما من أسمائه تعالى؛ فإنه لم يخبرنا أنه سمَّى نفسه سبحانه وتعالى بذلك، ولا أخبرنا بذلك رسوله عليه الصلاة والسلام.

مُنطلق المؤمنين إلى ذلك مما يرونه من وجود المحدَثات في الكون بعد عدم، فإن هذه الموجودات المحدَثة تستلزم بالضرورة العقلية مُوجِدًا أزليًّا قديمًا لا يسبقه عدم؛ لأنه يستحيل أن يكون موجده حادثًا ثم موجد ذلك الحادث حادثٌ آخر إلى ما لا نهاية، بل لا بد أن تنتهي هذه السلسلة إلى مُوجد قديم وجوده واجب[1].

ولو افترضنا ذلك بحيث يكون لكل موجود حادثٍ موجدٌ حادثٌ مثله، وهكذا إلى ما لا نهاية، فمع أن هذا اللاتناهي لا وجود له واقعيًّا كما يعترف بذلك علماء الرياضيات والفلاسفة[2]، فإن التسليم به يستلزم أنْ لا خالقَ للكون ولا وجود له، وهو ممتنع ومناقضٌ للمعارف الحسية الضرورية.

إذن تسلسل الفاعلين إلى ما لا نهاية ممتنع؛ بل لا بد أن تصل سلسلة الفاعلين إلى علة غير معلولة، وإلى سبب نهائي تنتهي إليه الأسباب، وهذه النهاية هي إلى الله -سبحانه وتعالى- كما قال تعالى: {وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى} [النجم: ٤٢].

ولعلنا نجلِّي لك الأمر بهذا المثال: لو قال لك المحاسب الذي يصرف الرواتب: لن أسلِّمك الراتب حتى يوافق سالم، ولن يوافق سالم حتى يوافق سامي، ولن يوافق سامي حتى يوافق سامر، ولن يوافق سامر حتى يوافق سلمان...وهكذا إلى ما لا نهاية، فلن تستلم الراتب أبدًا ولن يحصل الأثر.

مثال آخر: لو افترضنا أن مجرمًا حُكم عليه بالقتل، فقال الجندي: لا يمكن أن أضرب عنقه حتى يأمرني من هو أعلى مني رتبة، وقال من فوقه لا أفعل ذلك حتى يأمرني من هو أعلى مني رتبة، فإما أن تنتهي إلى قائد يأمر بالقتل وإلا لم يقع الفعل، ومثل هذا في كوننا ووجودنا إن لم يكن لها بداية فلن يكون لها وجود.

---

(١) وممن استدل بهذا في الغرب اليوم (ويليام لين كريغ)، واستدل له على وجود الله ضد الملاحدة، وفي ذلك ألَّف كتابه (الدليل الكلامي الكوسمولوجي)، وقد ناقشه د. سامي عامري في آخر كتابه (فمن خلق الله) (١٨٧).

(٢) من أمثال (ديفيد هيوم) و(ديفيد هلبرت)، ينظر: فمن خلق الله لـ د. سامي عامري (ص٦٨).

ومن الشواهد على امتناع هذا التسلسل: استحالة عبور اللامتناهي، ومعنى ذلك أننا إن لم نبدأ من نقطة معينة ولحظة ثابتة، فإننا لن نستطيع تصوُّر الآن واليوم وأمس والعام الماضي والعام القادم، وهذا مناقض للواقع المحسوس في حياتنا؛ وقد لخَّصه الجويني في عبارة مختصرة بقوله: "ما يتسلسل لا يتحصَّل"[(١)].

وفي هذا يقول د. عبد الرحمن حبنكة: "فمن الضرورات العقلية، أو الحتميات العقلية، أن يكون وجود موجودٍ ما هو الأصل، لا العدم الكلي العام الشامل لكل ما يخطر في الفكر وجوده.

وذلك لأنه لو كان العدم الكلي الشامل لكل ما يخطر في الفكر وجوده هو الأصل، لاستحال عقلًا وواقعًا أن يتحول العدم بنفسه إلى الوجود.

وإذا استحال أحد النقيضين كان النقيض الآخر واجب الوجود عقلًا.

إذن فقد وجب بالضرورة العقلية أو بالحتمية العقلية، أن يكون الوجود لموجودٍ ما، هو الأصل.

وما كان وجوده هو الأصل عقلًا، فإنه لا يحتاج تفسيرًا ولا تعليلًا، ولا يتطلب سببًا.

هذه الضرورة العقلية، أو الحتمية العقلية، تثبت عقلًا بدليل استحالة نقيضها عقلًا"[(٢)].

وهذه المسألة هي التي تُسمّى عند أهل العلم باستحالة التسلسل في الفاعلين المؤثرين، وهي من الأدلة القوية التي اعترف الملاحدة بعجزهم عن ردها[(٣)].

والفضل في بناء هذا الرد القوي ونشأة أصله دليل الخلق والإيجاد يرجع إلى علماء المسلمين بحمد الله تعالى كما يعترف بذلك من يتناوله من الغربيين أنفسهم[(١)].

---

(١) العقيدة النظامية للجويني (ص٢٠).

(٢) كواشف زيوف (ص: ٥٢٧ – ٥٢٨).

(٣) ينظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٣٦/١)، تهافت الفلاسفة لأبي حامد الغزالي (ص٩٩ وما بعدها)، الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد (ص١١٩)، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمة (١٤٩/٣)، ولتوضيح أكثر شاهد المقطع التالي: gavJs١el٩٩https://www.youtube.com/watch?v=e

ويمكننا تلخيصه في هذه العبارات المختصرة:

١- كل ما في كوننا ممكن الوجود، ولا يمتنع عقلًا ألَّا يوجد.

٢- كل شيء وجوده ممكن، فهو محتاج إلى علة ترجح وجوده على عدمه.

٣- لا يمكن لسلسلة العلل والآثار أن تستمر في الماضي إلى ما لا نهاية.

٤- لا بد لهذه السلسلة أن تنتهي عند من/ ما لا علة لوجوده.

٥- تنتهي السلسلة عند الأوّل الذي يفسَّر وجوده بطبيعة امتناع عدمه عقلًا، وهو: واجب الوجود[٢].

وهذا الاستدلال العقلي الرصين كما ترى ليس هو إرجاع للمسألة خطوة إلى الوراء اعتباطًا هكذا كما يفترضه الملاحدة، إذ لم يقرِّر المؤمنون أن الكون له سبب، وأن الله لا يحتاج إلى مثل ذلك السبب بمجرد التحكم الاعتباطي أو الافتراض الشخصي، وإنما بالضرورة العقلية البدهية.

فنحن عندما وجدنا الكون أمامنا كان التساؤل العقلي المنطقي من خلق الكون؟ فهو سؤال منطقي؛ لأن الكون حادث بعد عدم ومحتاج إلى خلق، لكن من غير المنطقي أن نسأل: من خلق الله؟ لأن الخالق لا يحتاج إلى خلق.

مثلًا: إذا دخلت إلى غرفة رأيت فيها كتابًا موضوعًا على الكرسي ورجلًا جالسًا على الأرض، ثم خرجت وعُدت، فوجدت الكتاب على الطاولة، والرجل على أريكة، فسؤالك المنطقي هنا من وضع الكتاب على الطاولة؟ ومن غير المنطقي أن تسأل من وضع الرجل على الأريكة؟ لماذا؟

لأن الكتاب ليس له القدرة على الحركة من تلقاء نفسه أما الرجل فله القدرة الكاملة على الحركة والتنقل.

---

(١) ينظر: الدليل الكلامي الكوسمولوجي لـ(ويليام لين كريغ) (ص١٧).

(٢) فمن خلق الله لـ د. سامي عامري (٨١).

وهذا السؤال -سؤال من خلق الله- في الحقيقة ينمُّ عن **خطل وخبط عقلي عشوائي**؛ فبعد أن تُقرِّر وتُثبت بالأدلة والحجج والبراهين أن وجود الله سبحانه وتعالى الخالق الأزلي لا سبب له ولا بداية له، يأتي ويسألك ما سبب وجود الله وكيف كانت بدايته ومن خلقه؟!!

وكيف لنا أن نبحث عن بدايةٍ لمن لا بداية له، بل هو **خارجٌ عن نطاق الزمان والمكان**، بل الزمن ذاته لا يعدو أن يكون مخلوقًا من مخلوقاته، فالله لا يخضع للقوانين التي تخضع لها المخلوقات وكيف يخضع لتلك القوانين وهو واضع القانون أساسًا، سبحانه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]؛ ولذا لا يصح في حقه سبحانه قياس التمثيل ولا قياس الشمول بل قياس الأولى.

وبالمثال يتضح المقال -ولله المثل الأعلى-: صانع السيارة مثلًا لا يمكن أن يكون مشابهًا للسيارة في شكلها والمادة المصنوعة منها ولا قوانينها، فالقوانين الفيزيائية التي تنطبق على السيارة لا تنطبق على صانعها، مع أنه لا يمكن للسيارة أن تكون موجودة لولا هذا الإنسان الذي صنعها.

والقوانين التي تحكمنا نحن في الزمان والمكان لا يمكن أن تنطبق على خالق الزمان والمكان سبحانه وتعالى؛ فإن الزمان لو تأملنا فيه فليس هو سوى أثر لحركة الأفلاك والأجرام، فهو ليس شيئًا قائمًا بذاته، وإنما أثر من آثار خلق الله تعالى[(١)].

وبهذا يقرُّ أرباب العلم التجريبي اليوم حتى الملاحدة منهم على عكس ما كان يدَّعونه قبلُ، فقد كانوا لا ينفكُّون عن الاعتراض على دليل الخلق والإيجاد بدعوى أزلية العالم والمادة والزمان، ولكن كثيرًا من المكتشفات العلمية الحديثة لم تقف في صفِّهم، بل نقضَت دعاواهم تلك ودفعتهم إلى التسليم بأن العالم والزمان مخلوقَين حادثَين وُجدا بعد أن لم يكن، وفي هذا

(١) ينظر: معيار العلم في فن المنطق للغزالي (ص: ٣١٨)، مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢/ ٤٩٢).

يقول (ستيفن هوكنج): "ومع تراكم الدليل التجريبي والنظري أصبح من الواضح أكثر وأكثر أن الكون لا بد له من بداية في الزمان، حتى تمت البرهنة على ذلك نهائيا في ١٩٧٠م"[١].

ويقول العالم الفيزيائي المعاصر (بول ديفيز): "أهم اكتشاف علمي في عصرنا هذا هو أن الكون المادي لم يكن موجودًا أبدًا"[٢].

وهذا التراجع عن القول بأزلية الكون كما أسلفنا يرجع إلى كثير من الاكتشافات والنظريات العلمية الحديثة، والتي من أهمها:

- **اكتشاف قانون الديناميكا الحراري الثاني**، وملخصه: أن الطاقة الحرارية لا تنتقل إلا من الأجسام الحارة إلى الأجسام الأقل منها حرارة، ولا يمكن أن يحصل العكس، مما يعني أن الطاقة في الكون لا تسير إلا في اتجاه واحد فقط، وهو الانتقال من الأعلى إلى الأقل حرارة، وبالتالي فالكون يفقد طاقته ويسير من النظام إلى الفوضى ومن الحرارة إلى البرودة[٣].

فإذا كان الكون كذلك فإنه سينتهي يومًا ما، وما له نهاية فلا بد له من بداية.

- **صعود نجم نظرية الانفجار العظيم**، وخلاصة هذه النظرية: أن كوننا بدأ بانفجار عظيم حدث قبل بلايين السنين من لا شيء، ومن حين هذا الانفجار بدأ الزمان والمكان، وهذا ما يعتقده عامة الفلكيين اليوم، وهو ما أثَّر على تبنِّي القول بحدوث المادة وعدم أزليتها[٤].

---

(١) تاريخ موجز للزمان لـ(ستيفن هوكنج) (ص٧)، وينظر أيضا: نظرة علمية لـ(برتراند رسل) (ص١٠٧- ١٠٩)، الله يتجلى في عصر العلم لمجموعة من الباحثين (ص١٢)، وأيضا (ص٩١)، والإسلام يتحدى لمؤلفه وحيد الدين خان (ص٥٥).

(٢) القوى الأربع الأساسية في الكون لـ(بول ديفيز) (ص١٧)، وانظر: الله يتجلى في عصر العلم لمجموعة من الباحثين (ص٣١).

(٣) ينظر: أساسيات الفيزياء لـ(بوش) (ص٣٢٧- ٣٤٤).

(٤) ينظر: القوى الأربع الأساسية في الكون لـ(بول ديفيز) (ص٢٠)، التصميم العظيم لـ(ستيفن هوكنج) (ص١٥٢ وما بعدها)، الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون لـ(ستيفن واينبرج) (ص١٢).

وقد استدل العلماء على صحَّة النظرية بشواهد كثيرة أوصلها عالم الفيزياء الفلكية (هيو روس) إلى ثلاثين دليلًا، وقد استعرضها د. سامي عامري في كتابه (فمن خلق الله)، ومن أهمها:

- وجود إشعاع الخلفية الكونية وحرارته.
- نسبة الفوتونات مقارنة بالبريونات في الكون.
- معدل التوسع الكوني.
- المدارات المستقرة للنجوم والكواكب.
- وجود الحياة والإنسان.
- وفرة الهيليوم في الكون.
- الأعمار النجمية.
- أعمار المجرات.
- صور تاريخ الكون.

وغيرها من الشواهد العلمية التي أيَّدت هذه النظريَّة وأعطتها السيادة في أوساط العلم الحديث اليوم[١].

ويصوّر لنا رئيس علماء وكالة ناسا[٢] خيبة أمل الملحدين في ذلك بقوله: " تنتهي القصة بالنسبة للعالِم الذي عاش بإيمانه بقوة العقل كمنامٍ سيء، لقد تسلق جبال الجهل، ويكاد يقهر أعلى قمة، وبينما هو يرفع نفسه إلى الصخرة الأخيرة، **يفاجأ بتهنئة من جَمْعٍ من اللاهوتيين الجالسين هناك منذ قرون**".

فهذه النظرية وشواهدها كانت صادمة ومزعزعة لكثير من الملحدين، كما يقول أنتوني فلو: "عندما التقيت لأول مرة –كفيلسوف ملحد– بنظرية الانفجار العظيم الكوني التي

---

(١) ينظر: فمن خلق الله لـ د. سامي عامري (ص٨٩).

(٢) هو (روبرت جسترو) اللا أدري في ختام كتابه (الله والفلكيون) (ص١١٦).

تصدت لتفسير وجود الكون، أدركت أنني أواجه نظرية مختلفة، نظرية تتماشى مع ما يطرحه سفر التكوين، وإذا كان الأمر كذلك، فلم يعد هناك مفر من البحث عمن أحدث هذه البداية"[١].

فلم يجدوا بُدًّا سوى أن يتنكروا لهذه النتائج التي توصَّل إليها العلم الحديث الذي طالما تبجَّحوا باتِّباعهم له وسيرهم معه أينما سار، فلما كان الأمر موافقًا لما عليه الدين تنكَّروا له محاولين تجاوز دلائله ويقينياته، وما زالوا حتى اليوم يمارسون هذه المغالطة، وهذا ما نقرأه في مقال نشر في مجلة (new Scientist) التي يسيطر عليها الماديون في عام ٢٠١٢م " اعتقد علماء الكوسمولوجيا أن عليهم الالتفات وراء المشكلة، لقد حاولوا على مرّ السنوات الماضية إثبات عدة نماذج مختلفة للكون تتفادى الحاجة إلى بداية، مع الاستمرار في اشتراط انفجار عظيم. **يبدو الآن من المؤكد أن الكون كانت له بداية**"[٢].

ويوضح لنا (جاسترو) عمق الانغلاق العقلي الذي يمارسه هؤلاء حيث يقول: "إنهم يؤمنون أنهم بشيء من الوقت والمال بإمكانهم الوصول إلى حلّ علمي لبداية الكون يوافق عقليتهم المادية ويلغي كل تفسير خارق... **إن الانفجار العظيم قد مسح كل أثر من الممكن الاستدلال به على غير ما نشهده اليوم**"[٣] والفيلم الشهير (مطرودون) يحكي واقع هذا الانغلاق[٤].

إلى هنا قد تبين لنا تناقض هذا السؤال في بُنيَته، ومغالطاته المنطقية، ومصادمته لمكتشفات العلم الحديث، وتماسك دليل الخلق والإيجاد في مقدماته ومكوناته، فإذا كان كذلك، فلننظر **هل تضمّن الشرع هذه الحجة وهذا البرهان؟ أم اكتفى بمجرد المنع من الخوض في هذا السؤال كما يظن كثير؟**

---

(١) ينظر: رحلة عقل لعمرو شريف (ص٨٠).

(٢) نقلا عن (فمن خلق الله) لـ د. سامي عامري (ص٩٩).

(٣) رسالة من البروفيسور (جاسترو) نقلا عن (فمن خلق الله) لـ د. سامي عامري (ص١٢٢).

(٤) https://www.youtube.com/watch?v=gwcDgIcwdtU .

كمال المعالجة الشرعية لهذه الشبهة

سبق أن ذكرنا أوَّل هذه الورقة أن الشرع أمرنا بالاستعاذة بالله تعالى والتوقف عن مثل هذا السؤال، وعزانا إلى الإيمان الكامن في نفوسنا بالله سبحانه وتعالى، ولكن هناك مَن فهم أن الشرع لم يعالج المسألة علاجًا كاملًا، وإنما اكتفى بإبعاد المسلم عنها دون نقد بُنْية الشبهة وأصلها، وقد غَلطوا فيما ظنُّوا، ففي كتاب الله وسنته الخير والهدى، وهما المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك، **ولكن كيف ذلك؟**

أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه شبهة شيطانية يوسوس بها الشيطان على أفئدة الناس، حيث يقول: «**يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول: من خلق كذا وكذا ؟ حتى يقول له: من خلق ربَّك؟** ...»[(١)].

وفي رواية: «**يأتي العبدَ الشيطانُ فيقول: من خلق كذا وكذا؟...**»[(٢)].

وما كان الله ليذر المؤمنين دون أن يُميِّز لهم خبث هذه الوسوسة الشيطانية، ويبيِّن لهم العلاج النافع والسلوك الأقوم معها.

فقد دلَّنا الشرع على المنهج والقاعدة العامَّة التي ينبغي أن تُسلك مع مثل هذه الوساوس والسفسطات؛ إذ الإحاطة بكل وسواس يرِد على نفوس المؤمنين عزيز لا حصر له، فلا يمكن حصره في قول بل في كتب وأسفار.

فكان الأصلح هو وضع قاعدة للتعامل مع مثل هذه الخطرات والوساوس السوفسطائية، وهو ما سبق الشرع إليه.

وذلك أن المبادئ الأولية الضرورية كامنة في النفس البشرية، وبدهية في الفِطَر السوية، ولكن الفطرة قد تمرض وتفسُد فترى البدهي نظريًّا والحق باطلًا، وتقبل تلك الوساوس والخطرات المغالطة، وحينئذ نحتاج إلى علاجٍ لهذا المرض، **فما هو العلاج المُجدي في مثل هذا المرض؟**

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٧٦).

(٢) صحيح مسلم (٢١٤).

العلاج الأكمل لمن فسُدت فطرته وشكَّ في المقدِّمات العقلية البدهية أن ينتهي عن تلك الوساوس، وأن يُذكَّر بأصالة هذه المبادئ الفطرية في نفسه، ولا يمكن معالجة هذا المرض بالأدلة العقلية والبرهانية؛ لأن الأدلة العقلية مستندةٌ على تلك المقدمات الفطرية، فكيف يُستدل بالأدلة العقلية على البدائه الفطرية التي هي مستندة عليها؟[١]

فمن شكَّ في المقدمات الأولية الفطرية انقطع عنه طرق الاستدلال والبرهنة، ولزم علاج هذه المشكلة فيه قبل الانتقال إلى ما بعدها؛ لأن من ينكر العلوم الحسية والضرورية -كالعلم بأن الواحد نصف الاثنين- لا سبيل إلى مناظرته أو الاستدلال عليه بالبراهين، بل إذا كان جاحدًا معاندًا عوقب حتى يعترف بالحق، وإن كان غالطًا فإنه يعالج بما يوجب حصول شروط العلم له وانتفاء موانعه، فإن عجز عن ذلك لفسادٍ في طبيعته عولج بالأدوية الطبيعية أو بالدعاء والرُّقى ونحو ذلك وإلا تُرك.

إذن الوسواس السوفسطائي القادح في المقدمات الأولية لا تُعالج بالاستدلال والبراهين، وإنما بالتذكير والتنبيه على فطرية تلك المبادئ.

ولما كان سؤال (من خلق الله؟) من جنس هذه الوساوس السوفسطائية، نجد هذا العلاج جليًّا في تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع الوسواس السوفسطائي الذي نناقشه في هذه الورقة، فقد علِم صلى الله عليه وسلم أن وسواس التسلسل في الفاعل يقع في النفوس؛ ولأن العلاج الأنفع مع أمثالها هو قطع هذه الوساوس والرجوع إلى المبادئ الأولية أمر بالانتهاء، والاستعاذة بالله منها، والاستناد إلى الأدلة الفطرية، واستحضار الإيمان بالله والشواهد القطعية الدالة عليه، وقطع الوسواس العارض بطود الإيمان الشامخ.

وهكذا نجد النبي صلى الله عليه وسلم لخَّصها في قوله: «**فليستعذْ بالله وليَنْتهِ**»[٢]، وقوله: «**فليقل: آمنت بالله**»[٣].

---

(١) وللاستزادة عن المقدمات الأولية ينظر: مقال دلالة المقدمات الضرورية على وجود الله في موقع مركز سلف للبحوث والدراسات http://salafcenter.org/522/ .

(٢) صحيح البخاري (٣٢٧٦).

(٣) صحيح مسلم (٢١٢).

إذن النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا حيال هذا الوسواس بثلاثة أمور:

١- الاستعاذة.

٢- الانتهاء.

٣- الإيمان.

وسنفصِّل لك القول في كل واحدة من هذه:

١- الاستعاذة.

من غلبه وسواس التسلسل حتى عجز عن دفعه عن نفسه، فهذا علاجه الاستعاذة بالله منها؛ فإن الله هو الذي يعيذ الإنسان ويجيره من الشبهات المضلة والشهوات المغوية؛ ولهذا أُمر العبد أن يستهدي ربه في كل صلاة، فيقول: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: ٦، ٧]، ويطرد عنه وساوس الشيطان ونزغاته بالاستعاذة كما قال تعالى: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأعراف: ٢٠٠].

وامتدح الله المؤمنين المتقين بأنهم {إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا} [الأعراف:٢٠١]، إلى غيرها من النصوص الكثيرة في هذه الاستعاذة بالله العظيم.

والواقع أن كلَّ إنسان يعرف من نفسِه كثرةَ تقلب قلبه من الخواطر، سواء في جانب الشبهات أو جانب الشهوات، والله هو القادر على صرف ذلك عنه.

فالاستعاذة بالله إذن علاج قويم وناجع مُفضٍ إلى المقصود.

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتف بتلك الوصفة العلاجية لهذا المرض، بل أردفها بالانتهاء عن منبت المرض وأصله.

٢- الانتهاء.

سبق أن قلنا إن فساد هذه الشبهة معلوم بالبداهة العقلية الضرورية؛ فإن العاقل يعلم خطأ سؤال من يسأل: من خَلَق الذي لم يُخلق؟

لأنه سؤال يتضمن مغالطة منطقية ويفضي إلى التسلسل الممتنع ببداهة العقول، فالعلاج الأمثل معه هو الانتهاء.

ولذا أمر به النبي صلى الله عليه وسلم، فالانتهاء وإيقاف وسواس الشيطان وخطراته المفسدة لفطرة الإنسان وعقله هو من العلاجات الشرعية، وهو علاج ناجعٌ، بل الأنجع لهذه الشبهة؛ لأن هذا الوسواس ليس من جنس الوساوس الأوّلية التي تُعالج بما بعدها، بل هو نهاية الوساوس التي لا تُزال إلا بالانتهاء؛ فإن النفس البشرية والفطرة السويَّة تطلب سبب كل شيء حتى تنتهي إلى الغاية والنهاية التي لا شيء وراءها، فإن وصلت إلى غاية المطالب ونهاية المآرب وجب عليها أن تقف.

والله سبحانه وتعالى إليه المنتهى كما قال تعالى: {وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى} [النجم: ٤٢]، فهو سبحانه منتهى الغايات[١] التي لا غاية دونه سبحانه، ومن طلب غايةً بعده سبحانه وجب أن يقف وأن ينتهي، ويستجير بالله من وسواس التسلسل الممتنع ببداهة العقول.

وهكذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم الاستعاذة علاجًا لهذا للمرض، وأمر بالانتهاء وإيقاف أصل المرض ومنبعه، ثم أوجد البديل النافع لذلك المرض، ألا وهو الإيمان.

٣- الإيمان.

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعلاج هذا الوسواس ودفعه بالإيمان، وقول: "آمنت بالله"؛ لأن العلاج الأصلح للسفسطة هو التنبيه والتذكير بالبدائه والمقدِّمات العقلية لعلها تستيقظ من سباتها، فإن اتعظ ورجع إلى فطرته علم فساد هذه الشبهة، وذهبت عنه الوساوس.

فإن وساوس الشيطان لا يمكن أن تجتمع في قلبٍ معمَّر بالإيمان؛ لأن الشيطان يخنس عند ذكر الله؛ ولذا سُمِّي الوسواس الخناس، كما في قوله تعالى: { مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} [الناس: ٤، ٥]، والخنوس الاختفاء بنوع من الانخفاض

(١) هذا من باب الوصف وليس هو اسمًا لله جل وعلا، كما هي القاعدة المعروفة عند أهل السنة والجماعة.

والذل له، فعند ذكر الله تعالى يذلّ الشيطان ويخضع ويختفي، ولكن إذا غفل العبد عن ذكر الله وسوس له.

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم العبد أن يقول: "آمنت بالله"؛ فإن هذا القول إيمان، وذكرُ الله يُدفع به ما يضاده من الوسوسة القادحة في العلوم الضرورية الفطرية.

وإليك هذا المثال لتتضح المسألة:

قد يوسوس الشيطان إلى المسلم ويشككه في علومه الحسية الضرورية، مثلا: هل غسل وجهه في وضوئه أم لا؟

فهذا علاجه بأن يقول: بلى قد غسلت وجهي، فيثبت على الحق ويدفع ما يعارضه من الوسواس، فيرى الشيطان قوته وثباته على الحق، فيندفع عنه.

فيزول الوسواس بالاستعاذة وانتهاء الإنسان عنه، وقول: بلى قد غسلت وجهي.

وهكذا في الشبهة التي ناقشناها في الورقة: إذا وسوس له الشيطان وقال: إذا آمنت بأن الله خالق الكون وسببه، فمن خلق الله؟

فيقول: آمنت بالله ويزيل هذه الوسوسة عن نفسه[1].

الخاتمة

في ختام هذه الورقة، قد تبين لنا أن هذا الإشكال الإلحادي (فمن خلق الله؟) ليس في ذاته ما يقيمه، بل هو متناقض من داخله، وأن الأدلة العقلية والشواهد العلمية الحديثة كلها تردُّه، وكيف أن الشرع قد بيَّن لنا السلوك الأمثل مع هذه الشبهة.

فالأنفع لكل من وجد شيئًا من هذه الوساوس، أو أُلقي إليه شيء منها ألَّا يتمادى فيها بل ينكرها من أعماق قلبه، ويستعيذ بالله منها، ويتذكَّر أن إيمانه يستند على أدلَّة وبراهين كثيرة متضافرة قطعية لا شك فيها، ويقول: آمنت بالله كما أمر الرسول عليه الصلاة

(١) ينظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/ ٣٠٧ وما بعدها).

والسلام، وأن لا يتمادى مع الخائضين في الشكوك والسفسطة؛ لأن تلك الخطرات والشكوك لا منتهى لها.